

المكان في شعر شعراء طبقة الإسلاميين السادسة من طبقات ابن سلام الجُمحي

د. هبة عبد الوهاب عقيل*

الملخص

يرمي هذا البحث إلى دراسة المكان بمظاهره وأبعاده المتنوعة، في شعر فئة محددة من شعراء العصر الأموي، أعني شعراء الطبقة السادسة من طبقات الإسلاميين عند ابن سلام الجُمحي، وشعراء هذه الطبقة هم: عبيد الله بن قيس الرقيّات، والأخوص، وجميل بن معمر، ونُصيب¹.

ونصّ ابن سلام على أن الرابط الذي يجمع شعراء هذه الطبقة رابط مكاني، قائلاً: "الطبقة السادسة من الإسلاميين، حجازية"²، وذلك لأنه وجد أن الرابط المكاني المذكور يشكّل -من جهة- صلة وثيقة بين المنتميين إلى مكان واحد، ولما كان يدركه -من جهة أخرى- من أثر للمكان في شعر أهله، ولعل هذا ما أراد أن يبيّنه عندما عمد إلى تصنيف بعض الطبقات وفقاً لاشتراك أصحابها في الانتماء إلى مكان واحد، أو بيئة محددة. (طبقة أهل القرى مثلاً)

والغاية من البحث: الكشف عن تجليات المكان في شعر شعراء الطبقة السادسة، في المستويات المتعددة؛ الفنية والنفسية والواقعية، من خلال الحديث عن نمطين من الأمكنة، هما: نمط الأمكنة الأليفة، ونمط الأمكنة غير الأليفة، أو المعادية، ومحاولة استخلاص السمات المشتركة التي تسم تناول المكان في شعر شعراء هذه الطبقة، ثم إبراز الملامح التي تفرّد بها تناول المكان في شعر كل منهم، وما يكمن وراء ذلك من أسباب.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

¹ تراجم الشعراء في طبقات فحول الشعراء: ابن سلام الجُمحي؛ عبيد الله بن قيس الرقيّات: ص: 647/2؛ الأخوص:

ص: 655/2؛ جميل بن معمر: ص: 669/2؛ نصيب: ص: 675/2.

² طبقات فحول الشعراء: ابن سلام الجُمحي، ص: 647/2.

Space and Place in the Poetry of the Sixth Islamic Class Poets of Ibn Sallam Al Jumahee's Classes

Dr. Heba Abd Al Wahhab Akil**

Abstract

The aim of this research is to study place and all its aspects and dimensions in the poetry of a specific category of the poets of the Umayyad Era, the poetry of the sixth class of the Islamic poets presented by Ibn Sallam Al Jumahee. The poets in this class include Obaid Allah bin Qais Alruqayyat, Al Ahwas, Jameel bin Ma'amar, and Nusaib.

Ibn Sallam stated clearly that the link which connects the poets of this class is a place link. According to him, "the sixth class of Islamic poets is Hijazi." He had found out that the mentioned place link is a close connection among the people of one location. On the other hand, he had recognized the effect place has on the poetry of its people. This was perhaps what he wanted to show when he classified some classes according to those who belong to the same place or same environment (the class of Ahl Al Qura, i.e poets of Arab cities).

The aim of the research is to reveal how place was manifested in the poetry of the sixth Islamic class on different levels: technical, psychological, and realistic levels. This is done by discussing two types of place: the friendly place, and the unfriendly or the hostile place. The research is also an attempt to find out the common features that characterize the way place is tackled in the poetry of this class of poets. Then the distinctive features of the poetry of each of these poets concerning the way they approach place are described, with explanation of the causes of each poet's distinction.

** Damascus University, Faculty of Letters and Humanities, Department of Arabic language and literature

لا بدّ قبل الشروع في استجلاء تجليات المكان في شعر شعراء طبقة الإسلاميين السادسة من الوقوف عند تعريف المكان في اللغة والفلسفة، ومفهومه في الأدب، حتى يسهل اكتناه أبعاده في البحث، وإذا كانت كتب وبحوث كثيرة اهتمت بالمكان، وكتب أصحابها معرّفين بالمكان في بحوثهم ودراساتهم، فإنني لا أجد غضاضة من الإشارة إلى بعض تلك التعريفات، ليكون تعريف المكان ركيزة أنطلق منها إلى دراسة أبعاد المكان في شعر فئة محددة من الشعراء خصصتها بهذا البحث.

المكان في اللغة:

المكان: الموضع، والجمع أمكنة وأماكن، والمكان اشتقاقه من كان يكون، ولكنه لما كثر في الكلام صارت الميم كأنها أصلية¹. والمكان: الموضع الحاوي للشيء². وجاء في الكلبيات: "المكان، لغة: الحاوي للشيء المستقر، كمقعد الإنسان من الأرض وموضع قيامه وإضجاعه، وهو (فعال) من التمكن لا (مفعل) من الكون، كالمقال من القول، لأنهم قالوا في جمعه: (أمكن) و(أمكنة) و(أماكن) وقالوا: تمكن³".

المكان في الفلسفة:

حظي المكان قديماً بعناية فلاسفة اليونان والفلاسفة العرب والمسلمين، كما حظي بعناية الفلاسفة المحدثين، فقيل فيه كلام كثير، لن أقف عنده بالتفصيل⁴، وأكتفي بتعريف واضح وجامع للمكان، بأنه: "وسط غير محدود، يشتمل على الأشياء، وهو متصل ومتجانس لا تمييز بين أجزائه، وذو أبعاد ثلاثة هي الطول والعرض والارتفاع، ويمكن بناء أشكال متشابهة فيه،...، وهو بهذا تصور عقلي محيط بجميع الأجسام"⁵.

¹- لسان العرب: (مكن).

²- تاج العروس: (مكن).

³- الكلبيات: الكفوي، ص: 826.

⁴- ينظر للاستزادة:

. تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون: د. محمد علي أبو ريان، ج1.

. التعريفات: الجرجاني، ص: 227.

. الكلبيات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): الكفوي، ص: 826.

. موسوعة الفلسفة: د. عيد الرحمن بدوي، ج1.

. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: التهانوي، ص: 1634/2.

⁵- المعجم الفلسفي: ص: 191.

المكان في الأدب:

يمثّل المكان عنصرًا أساسيًا من عناصر الأدب، فما من عمل أدبي لا يتناول الإنسان، ولا ينطوي على قيمة تتصل بالإنسان، ولا وجود للإنسان إلا ضمن المكان، وما من عمل أدبي يخلو من الحدث، والحدث يحدث في المكان، ثم إن المبدع، سواء أكان شاعرًا أم ناثراً، يعيش في المكان، فيتأثر به ويؤثر فيه، وتظهر تلك التأثيرات في نفسه، وتتجلى في عمله من غير شك.

وقد تتفاوت قيمة المكان من عمل أدبي إلى آخر، إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة المكان في العمل على أي حال، ويبقى المكان في الأدب عنصرًا أثيرًا "لأنه منبثق من الوجدان، ويثير في النفس ذكريات الأهل والأحبة، ويبعث في الذات الأمل بعدما غمرها اليأس والحرمان".¹

المكان في شعر شعراء طبقة الإسلاميين السادسة:

يبدو تصنيف أنواع الأماكن في الشعر العربي أمرًا بالغ التعقيد والصعوبة، لما يتضمنه الشعر من مفردات وأسماء تتجاوز دلالاتها معانيها الحقيقية، لتدلّ على أمكنة ذهنية أو متخيّلة يرمي إليها الشاعر.

ولما كان المكان في الشعر يتصل بصاحبه بعلاقات متشعبة ومتعددة، فقد أثرت أن اقتصر على دراسة وجهين بارزين مشتركين من وجوه تجلّي المكان في شعر شعراء طبقة الإسلاميين السادسة، هما: الوجه الإيجابي الذي يتجلى في المكان الأليف (الطلل، المكان المقدس، الوطن)، والوجه السلبي الذي يتجلى في المكان المعادي (القبر، مكان الاغتراب، أرض العدو).²

أ- المكان الأليف:

بيّن باشلار أن المكان الأليف هو المكان الذي نحب، وهو مكان ممتدح لأسباب متعددة، ومرتبطة بقيمة إيجابية هي قيمة الحماية التي يمتلكها المكان³، قال: "إن المكان الذي يجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانًا لا مبالياً، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من

¹ - المكان في شعر ابن زيدون: ساهرة عليوي حسين العامري، ص: 15.

² - استُخدمت تسميتا (المكان الأليف والمكان المعادي) من كتاب: جماليات المكان لغاستون باشلار، ص: 6-7.

³ - جماليات المكان: باشلار، ص: 31.

تحيّز، إنّنا ننجذب نحوه لأنه يكثف الوجود في حدود تتسم بالحماية.¹ ويرتبط المكان الأليف" بالدفء والألفة والحماية حيث يتم تعارف الناس فيه.² ويشغل المكان حيّزاً واضحاً في نفوس الشعراء العرب، وفي شعرهم، تبعاً لذلك، ولا شك في أن المكان لا يظهر في الشعر العربي بصورته الواقعية، أعني تلك الصورة التي تلتقطها العين وحسب، ولكنه يتمثل في الشعر بعد أن يخضع عند الشاعر لمعالجة ذهنية نفسية، فتمتزج الصورة الواقعية المرتبطة مع التجربة الحقيقية للشاعر في المكان، مع التجربة المختزنة في الذاكرة، وينتج عن هذا الامتزاج مكان جديد، تربطه بالشاعر علاقة تتجاوز العلاقة المألوفة، إلى علاقة قائمة على المحاور والخطاب.³ ويبرز المكان الأليف في شعراء الطبقة الحجازية المدروسة متمثلاً في الطلل، والمكان المقدّس، والوطن، وسأفصل القول في هذه الأماكن فيما يأتي.

الطلل:

إن العلاقة بين الشاعر والمكان/الطلل علاقة وطيدة راسخة، فالشاعر يختزن المكان في ذاكرته، ويحنّ إليه إن غاب عنه، ويظل يردد اسمه في شعره متغنياً به، وبما كان له فيه من ذكريات، وشعر الوقوف على الأطلال شعر مثقل بالذكريات، ويكتسب جمالاً خاصاً من العناصر الثلاثة التي تكونه، وهي: عنصر الماضي، وعنصر الاندثار والخراب، وعنصر الذكرى.⁴ ومن هنا فإن "العلاقة بين الشعر والمكان علاقة عميقة الجذور، متشعبة الأبعاد، ومن خلالها قد يصب الشاعر على مكان ما طابعاً خاصاً، فيحوّله من مسكن خرب إلى طلل مثير، ومن حجر أصمّ، إلى شاهد على لحظات مجد أو وجد."⁵ يبدو الطلل في شعر شعراء طبقة الإسلاميين السادسة بصورته التقليدية المألوفة، بما تتضمنه هذه الصور من ملامح متنوعة، حرص الشعراء منذ الجاهلية على الإبداع في رسمها، وتابع كثير من شعراء العصر الأموي ما أسسه الشعراء السابقون، وإن كنا لا نعدم وجود بعض الاختلافات التي تميّز كلاً منهم.

¹- المرجع السابق: ص: 31.

²- مشكلة المكان الفني: لوتمان، ضمن (جماليات المكان/ جماعة)، ص: 65.

³- ينظر: المكان في الشعر الجاهلي: عابد أمل مفرج، ص: 147.

⁴- ينظر: شعر الوقوف على الأطلال: د. عزة حسن، ص: 109-115.

⁵- في نقد الشعر (الكلمة والمجهز): أحمد درويش، ص: 84.

وإذا كان الطلل يرتبط في نفس الشاعر بالذكريات، فمن المتوقع أن يعبر في شعره عما يهيج في نفسه الحنين إلى أيام مضت، واسترجاع لذكريات لها في القلب جذوة متوقّدة، يهدأ لهيبها حيناً، ويتأجج كلما مرّ الشاعر بالأطلال، أو كلما ذكرها في خاطره، فالأطلال تحمل قيماً نفسية واجتماعية وجمالية¹، لاتصالها الوثيق بالنفس البشرية من جهة، واتصالها الأوثق بالذات المتفاعلة مع محيطها من جهة ثانية، ولما في استعادة التجربة الاجتماعية في الأطلال من خلق لمستويات جمالية على المستوى الشعري من جهة ثالثة. قال جميل:

إنّ المنازلَ هيجتْ أطرابي واستعجمتْ آياتها بجوابي
قفرًا تلوحُ بذِي اللجينِ كأنها أنضاءٌ وشمٍ أو سطورُ كتابِ
لما وقفتُ بها القلوصَ تبادرتُ منّي الدموعُ لفرقةِ الأحبابِ
وذكرتُ عصرًا يا بئينةُ شاقني إذ فاتتني وذكرتُ شَرخَ شبابي²

إن وعي الشاعر بالمكان لا يبدو منفصلاً عن وعيه بالزمان، فالحنين في الأبيات حنين ارتدادي، يحنّ فيه الشاعر إلى مكان محدد في زمان محدد³، وجميل يحن إلى أطلال منازل جمعته ذات يوم من أيام شبابه ببئينة التي يهوى، ويحاول الشاعر أن يستحضر صورة الأطلال فيحدد مكانها بدقة، ويشبها -على عادة القدماء- بالوشم الذي أمحى وزال أثره، أو بسطور الكتاب، ويصف استعجابها وعجزها عن إجابة العاشق المحزون، هو بذلك لا يخالف سنة الشعراء من قبله، لكنه يضيف على أبياته شيئاً من روحه، فيناجي نفسه في حديث داخلي مشحون بالشجن، ويتحكم ضمير المتكلم بموسيقاه الخارجية من البيت الأول.

¹ جماليات المكان (آليات التبدّي المكاني في الشعر): د. سعد الدين كليب، www.startimes.com

² ديوان جميل: ص: 32. الأطراب: ج طرب: وهو الشوق، استعجمت: سكتت وعجزت عن الكلام، آياتها: علامات، ذو اللجين: موضع، الأنضاء: ج نضو وأصله البعير المهزول، وأطلق هنا على ما تبقى من الوشم لقلته وأمحاءه، القلوص: الناقة الشابة، شرح الشباب: أوله ونضارته وقوته.

³ جماليات المكان (آليات التبدّي المكاني في الشعر): د. سعد الدين كليب، www.startimes.com

وها هو ذا الأحوص يناجي ذاته مسترجعاً في أثناء وقوفه على الأطلال ما كان له
من ذكريات في (الحيِّ والدُّور) التي جمعته في الزمن الجميل بالحسناوات:

هل هيجتُك مَعَانِي الْحَيِّ وَالِدُّورُ فَاشْتَقَّتْ إِنَّ الْبَعِيدَ الدَّارِ مَعْدُورُ
وقد يَحُلُّ بِهَا إِذْ عَيْشُنَا أُنُقُّ بِيضٌ أَوَانِسُ أَمْثَالُ الدُّمَى حُورُ¹

ومن البين أن شعر الوقوف على الأطلال عند العرب "منقل بالذكريات، وفيه دوماً
صلة تشدُّ الشاعر إلى ماضٍ حبيب إليه، عزيز عليه، فيقف ليبيكه ويقضي حَقَّهُ عنده."²
ولا يتردد الشعراء في الدعاء لآثار الديار بالسقيا، وفي هذا الدعاء ما فيه من
استمطار الرحمة والشعور ببعث الحياة في الديار، وهذا أمر يداعب آمال الشاعر
باستعادة أيامه وذكرياته الطيبة في هذا المكان بعينه، قال جميل:

سقى منزلينَا يَا بَثِينِ حَاجِرٍ عَلَى الْهَجْرِ مَتَا صَيِّفٍ وَرَبِيعٍ³
وقال الرقيات:

يَا دِيَارَ الْكَوَاعِبِ بَيْنَ صَنَاعِنَا فَمَارِبِ
جَادِكِ السَّعْدُ غُدُوَّةٌ وَالثَّرِيْبَا بَصَائِبِ⁴

وقال الأحوص:

وَأُنَى مِنْ دِيَارِكَ أُمَّ حَفْصِ سَقَى بَلَدًا تَحُلُّ بِهِ الْغَمَامُ⁵

¹- ديوان الأحوص: ص: 161. المغاني: ج مغنى وهو المنزل الذي غني به أهله ثم طعنوا، الأثق: الفرح والسرور، الأوانس: ج أنسة وهي الجارية الطيبة النفس أو الحديث، الحور: ج حوراء وهي الجارية البيئة الحور، والحور أن يشتد بياضُ بياض العين وسواد سوادها.

²- شعر الوقوف على الأطلال: د. عزة حسن، ص: 115.

³- ديوان جميل: ص: 121. حاجر: موضع، الصيْف: مطر الصيف، الربيع: مطر الربيع.

⁴- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ص: 28. مارب: مخفف مأرب، جاد: سقى، الغدوة: البكرة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس.

⁵- ديوان الأحوص: ص: 237.

وقال نصيب:

سقى الله صوبَ المَزين أرضاً عمرتها
بريِّ وأسفاها بلادَ بني نَصير¹

وعلى ما بين الشعراء من اختلاف في أسلوب الدعاء، فإن غاية الدعاء المتمثلة في إعادة صور الحياة إلى أطلال ديار الحبيبة تشكّل العنصر المشترك بين أبياتهم تلك. "إننا نشعر حين نقرأ شعر الوقوف على الأطلال بجمال خاصّ يحققه هذا الشعر، وهذا الجمال يخلق في نفوسنا شعوراً خاصاً، يتصف دوماً بالكآبة والأسى."²

ولمّا كان الوقوف على الأطلال من مثيرات الحزن والأسى في نفوس الشعراء، فإن هؤلاء الشعراء كثيراً ما كانوا يصرحون بأن محبتهم للديار وأطلالها نابعة من محبتهم لأهلها الذين أقاموا فيها زمناً قسوا فيه جميعاً أوقاتاً من سعادة وهناءة عيش، ثم فارقوها تاركين لأحبتهم الشوق والذكريات. ويتفاوت الشعراء في موقفهم من الأطلال، فمنهم من يقف عليها متعجباً، فإذا ما شعر بأن قلبه يكاد ينقطر حزناً، مضى مبتعداً، وفضّل الانصراف عن مشهد الأطلال، محتفظاً لنفسه بجوى الشوق، متعلقاً بالبيت المهجور، بكل ما في نفسه من حب، قال جميل:

أَتَصْرُمُ هذا الرُبْعَ أم أنتَ زائِرُهُ
وكيفَ يُزارُ الرُبْعُ قد بانَ عامِرُهُ؟
رأيُّكَ تأتي البيتَ تُبْغِضُ أهْلَهُ
وقلبُكَ في البيتِ الذي أنتَ هاجِرُهُ³

إنه لا يهجر البيت الذي يحبّ إلا لأنّ أهله قد فارقوه، فما الذي يحمله على الزيارة، وما من حبيب ترتجى رؤيته هناك؟! ومنهم من لا يجد بأساً في أن يمر بالديار، على غير رغبة فيها، ولكن الأمل في لقاء الحبيبة يدفعه إلى ذلك المكان، قال ابن قيس الرقيات:

ودَخَلْنَا الدِيَارَ ما نَشْتَهِيها
طمعاً في أن ننالها أو ترانها⁴

¹ - شعر نصيب: ص: 96. المزن: ح مزنة وهي المطرة والسحابة البيضاء.

² - شعر الوقوف على الأطلال: د. عزة حسن، ص: 109.

³ - ديوان جميل: ص: 100. بان: ابتعد، عامره: أهله.

⁴ - ديوان ابن قيس الرقيات: ص: 157.

وأكثر الأحوص من ذكر محبة البيت لمحبة أهله، والوقوف على الديار لتذكر أصحابها، قال:

فُلْنَا لِمَنْزِلِهَا حَيِّتَ مَنْ طَلَّلِ وَلِلْعَيْقِقِ: أَلَا حَيِّتَ مَنْ وَادِي¹

إنه يلقي التحية على الطلل - على عادة الشعراء - وهو على يقين من أن الطلل لن يجيب، ولكنه يفعل ليخفف عن نفسه بعض ما فيها من أشواق، وهو بذلك إنما يفرغ شحنات عاطفية كبيرة يجيش بها صدره، ويستشعر راحة عندما يلقي التحية على دار الحبيبة، وهو يقصد صاحبة الدار. ويقول في موضع آخر، داعياً للمنازل دعاء جميلاً بالسلامة، مبيئاً أن ما به من محبة الديار والتعلق بها سببه ما تهيجه في نفسه من ذكريات الحب والحبيبة:

أَمَنْزَلْتِي مَيِّ عَلَى الْقِدَمِ اسْلَمَا لَقَدْ هَجُّمًا لِلشُّوقِ قَلْبًا مُنِيْمًا
وَدَكَّرْتُمَا عَصَرَ الشَّبَابِ الَّذِي مَضَى وَجِدَّةَ حَبْلِ وَصَلُّهُ قَدْ تَجَدَّمَا
أَحَبُّ دُنُو الدَّارِ مِنْهَا وَقَدْ أَبِي بِهَا صَدْعُ شَعْبِ الدَّارِ أَنْ تَنْيَمَمَا²

ولا يخالف نصيب سنة الشعراء، ويوافق شعراء طبقتهم، فيقول:

أَمَّا وَالَّذِي حَجَّ الْمَلْبُونِ بَيْتَهُ لَقَدْ زَادَنِي لِلْغَمْرِ حَبًّا وَأَهْلِهِ
وَعَلَّمَ أَيَّامَ الذَّبَائِحِ وَالنَّحْرِ لِيَالِ أَقَامْتُهُنَّ لَيْلَى عَلَى الْغَمْرِ³

إنه يؤكد محبته المكان لمحبه أهله مقسمًا بأغظ الأيمان، مستندًا في قسمه هذا إلى أسس إسلامية راسخة، وما تلك الأيمان التي يقسم بها إلا تأكيد لشغفه بالمكان لأنه - بنظره - قد اكتسب صفة مقدسة من إقامة المحبوبة فيه ليلي، وفي هذه الفسحة الزمنية المفتوحة أفق واسع من الانتظار المقترن بالسرور في تلك الليالي الفاتنة، وممتزج بالحسرة والشوق في حاضر الذكرى والبعد.

¹ ديوان الأحوص: ص: 139. العقيق: وإد.

² المصدر السابق: ص: 245-246. تجدّم: تقطع، الشعب: الافتراق.

³ شعر نصيب: ص: 94. الملبون: الحجاج عند التلبية، الغمر: اسم وإد في نجد.

إنّ اللوحات الطللية التي تقدّم الحديث عنها عبّرت عن "استنطاق للمكان وأسننة للطلل، [وفيها] إيقاع حركي وبصري وتأملي باستنكار الغياب وضياع الشاعر النفسي لفقدانه حياة المكان".¹ وحاول الشعراء تعويض الغياب والفقد باختزان صورة الطلل في الذاكرة، ومزج تلك الصورة بالحنين والشوق، لتغدو صورة الطلل صورة جديدة، صورة حيّة ناطقة.

المكان المقدّس:

اقترن ذكر الحبيبة في شعر هؤلاء الشعراء بذكر الأماكن المقدسة المرتبطة ببعض شعائر الإسلام، وفي هذا الأمر ما يضيف إطاراً من التقديس على علاقة الشاعر بمن يحب، ويجعل لهذه الأماكن المقدسة مكانة متميزة في نفس الشاعر، لأنه وافى فيها أحبته، فتضاعفت محبتها وأهميتها في قلبه. قال جميل:

وبين الصّفا والمروّتين ذكرْتُكُمْ بمختلفٍ من بين ساعٍ ومُوجِفٍ
وعند طوافي قد ذكرْتُك ذكراً هي الموتُ بل كادَتْ على الموتِ تضعُفُ²

إن الشاعر يذهل عن كل ما حوله في الأراضي المقدسة، مع أدائه ما ينبغي له أن يؤديه في هذه الأماكن، ممّا يفعله المسلمون، ولا يشعر إلا برباطة الذكريات تشده إلى حبيبته، فتكاد نفسه تزهق لذكراها، ويزداد قلبه تعلقاً بهذه الأماكن، لا لأهميتها الدينية وحسب، بل لأهميتها العاطفية في قلبه ونفسه.

ويصرّح ابن قيس الرقيات بأنه يقصد إلى الحج ليلقى (الثريّا) الحبيبة، قائلاً:

حبّذا الحجُّ والثريّا ومَنْ بالـ خَيفٍ من أجلها ومُؤقبي الرّجال³

بل إنه -كما يقول- يحب كل من بالخيف من أرض منى لأن هؤلاء يجاورون الحبيبة، ويذكر نصيب في شعره الأراضي المقدسة، وتقترن هذه الأماكن عنده بذكر الأحبة، فمن ذلك قوله:

¹ المكان في ذاكرة الشاعر الجاهلي: كاتب أمين، شبكة الألوكة، www.alukah.net

² ديوان جميل: ص: 131. الصفا والمروة: من مشاعر مكة وهما جبلا المسعى وإليهما ينتهي سعي الحجاج، الموجف: المهرول المسرح، الطواف: طواف الحجاج حول الكعبة، تضعف: تكثر وتزيد. قال محقق الديوان: "وَأراد جامع الديوان [بطرس البستاني] أن يتجنّب الضرورة الواضحة في الشطر الثاني من البيت [الأول] فغيّره إلى: "... بمختلف والناسُ ساعٍ ومُوجِفٌ".

³ ديوان ابن قيس الرقيات: ص: 112. الخيف: ناحية من منى، ملقو الرجال: الحجاج الذين يلقون رجالهم بالخيف.

طَلَعْنَ عَلَيْنَا بَيْنَ مَرَوَةٍ وَالصَّافَا يَمُرُّنَ عَلَى الْبَطْحَاءِ مَوْرَ السَّحَائِبِ
وَكِدْنَ لَعَمْرُ اللَّهِ يُحْدِثُنَّ فِتْنَةً لِمُخْتَشِعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَائِبٍ¹

إن هذه الأماكن تقترن في شعر نصيب بالنساء الحسان، ونجده يهتم بتصوير حركتهن في إقبالهن على هذه الأماكن، فإذا به ينتقي صورة من أجمل صور الطبيعة، هي صورة السحائب المتهادية، ولا يغفل عن تصوير التأثير النفسي لمرورهن، فهو يخشى فتنتهن على كل متبئل عابد ناسك.

إن المكانة الأثيرة التي حظيت بها الأماكن المقدسة في شعر شعراء الطبقة الحجازية كانت نتاج تآلف وتواشج بين أمور عدة، هي: المنزلة الدينية التي تتمتع تلك الأماكن بها، وموضعها في الحيز الجغرافي الذي ألفه الشعراء ونشؤوا ودرجوا فيه، بوصفه موطنهم ومهوى أفئدتهم، واجتماعهم بالأحبة في تلك الأماكن، بحكم الحياة فيه من جهة، واللقاء في أثناء أداء المناسك المقدسة من جهة أخرى، فارتقت تلك الأماكن في نفوسهم واكتسبت منزلة لا تضاهي، وصارت الذكريات التي ترد منها على خواطر الشعراء عابقة بنشوة الحب والحنين والرجاء والطاعة.

وجاء التعبير عن هذه الأمور متشابهاً بين الشعراء إلى حد بعيد، لتشابه الأسس التي بني عليها، مع ملاحظة ما تبين في شعر بعضهم - وأعني ابن قيس الرقيبات على وجه التحديد - من اتخاذ ذكر الأماكن المقدسة وسيلة فنية غايتها شد الانتباه، وليس هذا الأمر بدعاً، وإن النظر في ديوان عمر بن أبي ربيعة يبين أنه كان قد اصطنع هذه الوسيلة الفنية في مواضع عدة من شعره.

الوطن:

يعد ارتباط النفس الإنسانية بالمكان ارتباطاً جوهرياً، ليس للمرء انفكاك منه، وهو ارتباط نفسي، في المقام الأول، يدل على توق النفس وحنينها إلى المكان الذي ألفتته ثم تركته، فكيف بحال المرء إذا كان ذلك المكان يحتضن ذكرياته، وفيه مراتع شبابه وصباه، ومرابع أهله وأحبابه! إنه الوطن، المكان الذي يؤمن للمرء الراحة والعيش²، والمكان الذي تتأصل

¹ شعر نصيب: ص: 71. يمرن: يتحركن ويمشين، البطحاء: الأرض المنبسطة، لعمر الله: أي أحلف ببقاء الله ودوامه.

² الوطن في الشعر العربي: د. وهيب طنوس، ص: 203.

فيه هويته، ويضرب فيه بجذوره¹، وهو ما عبّر عنه جميل بن معمر تعبيراً مباشراً، فقال يذكر انتماءه إلى أرض الحجاز، مصرحاً بكلمة (وطني) بعد ضمير المتكلم البارز الصريح (أنا)، ومبيناً ما يشده إلى هذا الوطن من روابط الهوى والحنين:

أنا جميلٌ والحجازُ وِطْنِي
فيه هَوَى نَفْسِي وفيه شَجْنِي
هذا إذا كان السباقُ دَيْدَنِي²

ويدا الشعور بالانتماء إلى المكان/الوطن بمفهومه الحضاري الشامل³ على نحو واضح لافت للانتباه في شعر ابن قيس الرقيات، الذي نشأ في الحجاز نشأة لاهية مترفة، وأحبّ موطنه وتعلّق به تعلّقاً كبيراً، وكان لا يفتأ يذكر مرابعه ويتغنّى بها في شعره، ولكنه فارقه، ثمّ أتته على البعد أنباء مقتل قومه وما حلّ بهم في وقعة الحرّة⁴، فتارت في نفسه كوامن الذكريات، ومضى يبكي بلاده ويعدد أسماء مواضعها بحسرة وأسى. قال في أشهر قصائده:

أَقْفَرْتُ بَعْدَ عِبْدِ شَمْسٍ كَدَاءُ فُكْدَيِّ فَالرُّكْنُ فَالْبَطْحَاءُ
فَمِنَى فَالْجَمَارُ مِنْ عِبْدِ شَمْسٍ مُقْفَرَاتٌ فَبِأَدْحٍ فَحِرَاءُ
فَالْخِيَامُ التّي بَعْسَفَانِ فَالْجُـ فَعُ مَنْهُمْ فَالْقَاعُ فَالْأَبْوَاءُ
مَوْجِشَاتٌ إِلَى تَعَاهِنِ فَالسُّقُـ يَا قِفَارٌ مِنْ عِبْدِ شَمْسٍ خَلَاءُ⁵

¹ مشكلة المكان الفني: لوتمان، ضمن (جماليات المكان/ جماعة)، ص: 65.

² ديوان جميل: ص: 204. ديدي: دأبي وعادتي.

³ ينظر: الوطن في الشعر العربي: د. وهيب طنوس، ص: 192-193.

⁴ ينظر: تاريخ الطبري: أحداث سنة ثلاث وستين، ص: 482/5 وما بعدها.

⁵ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ص: 87-88. كداء: جبل بمكة، وهو عرفة، كدي: جبل قريب منه، الركن: هو الركن اليماني ركن البيت الحرام، البطحاء: بطحاء مكة، منى: جبل بمكة، وهو من مواقف الحج، الجمار: ج جمرة وهي موضع رمي الحجار، بلدح: واد في الطريق إلى مكة، حراء: جبل بمكة، عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، الجحفة: قرية على طريق المدينة إلى مكة، القاع: منزل الحج بطريق مكة، الأبواء: قرية أو جبل بين المدينة ومكة، تعاهن: عين ماء بين المدينة ومكة.

إن هذا اللهج بذكر الأماكن التي أقام فيها الشاعر مع قومه في أيام خلت، وتتابع ذكر الأماكن في البيت الواحد، أو الأبيات القليلة، مع تنوعها، يعدّ من أبرز الأساليب التي تابع فيها ابن قيس من سبقه من الشعراء في إبراز صورة المكان. ولم تكن تلك الأماكن عند ابن قيس أسماء يذكرها ويعددتها وحسب، ولكنها أماكن تربطه بها روابط عميقة من انتماء وحنين، ومن حزن وأسى لما حلّ بها من خراب بعد موقعة الحزة. وجاء ذكر الأماكن على ذلك النحو المتتابع تنفيصاً عما تجيش به نفس الشاعر من آلام وأحزان وأشواق، ومعلوم أن الإنسان يروّج عن نفسه همومها ويسليها عما تشعر به من فقد أو حزن بذكر من تهوى وما تهوى.

ويقترن مفهوم الوطن في شعر ابن قيس الرقيات بالذكريات الجميلة التي كانت له فيه، يقول معبّراً عما في ذاته من حسرة وأسى:

يا حبّذا يثربٌ ولذّتها من قبل أن يهلكوا ويحتربوا
وقبل أن يخرج الذين لهم فيها السناء العظيم والحسب¹

إن المكان المذكور في هذين البيتين (يثرب) ليس مكاناً عادياً، ولا يشبه غيره من الأماكن، فهو مكان يمتاز بمنزلة (سياسية) رفيعة، لا تضاهيه فيها أماكن أخرى. فيثرب كانت حاضرة الخلافة الإسلامية، ورمز السيادة القرشية على الحجاز وعلى الدولة العربية الإسلامية في أيام مضت، لكن تلك المدينة فقدت مكانتها بعد أن نقل بنو أمية حاضرة خلافتهم إلى دمشق، وتحولت يثرب إلى أرض احتراب وصراع بين أهلها من القرشيين، وأصحاب السلطة الجديدة من أقربائهم الأمويين، ويثير هذا الصراع في نفس الشاعر حسرات، ويتقل ذاته بهموم وأشجان، لأنه يرى أبناء قومه من قريش، أهل السيادة والعزّ المتوارث والحسب الرفيع، يصطرون على الحكم، فيقتل بعضهم بعضاً، ويتفرّق شملهم وتتكسر شوكتهم، ولا ينتصر المنتصر منهم إلا بعد أن يريق دماء أبناء قومه.

ولا تتفصل الذكريات الجميلة عند ابن قيس الرقيات عن ذكر المكان، ولا تتفصل في الوقت ذاته - عن ذكر الأهل والأحبة الذين قاسموه العيش في المكان، وقاسمهم الفخر بالسيادة والشرف، والشعور بالمحبة والألفة، قبل أن تفرقهم عوادي الدهر وتشتت شملهم، ويتكرر هذا المشهد في مواضع عدّة من شعره، وما ذاك إلا لما كان يشعر به من غصّة وألم

¹ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ص: 4. احترب القوم: أوقدوا نار الحرب، أي قبل أن يحترب الزبيريون والأمويون.

لما حلّ بقومه من تفرق بعد عزّ، ومن مغادرة لموطنه الذي يمثل مهوى فؤاده وغاية أمله. ونجده يزفر زفرات ملؤها الحسرة كلما مرّ بخاطره نكر موطنه، ونجد أن نكر المكان/الوطن عنده يقترن بالأحاسيس الجياشة التي يعبر عنها بصور أهمّها البرق الذي يلوح سناه من جهة الحجاز، ومن جهة الحرّة التي شهدت مأساة قومه على وجه التحديد، وما تلا التماح سناه من أمطار سقت تلك الأرض الطيبة المقدسة التي كانت أرضه وأرض عشيرته، قال:

يا مَنْ يَرَى البرقَ بالحجازِ كما أقبسَ أيدي الولائدِ الضّرما
لاخِ سنّاهُ من نخلٍ يثربَ فالـ حرّة حتّى أضنا لنا إضما
أسقى به الله بطنَ طيّبة فالـ رّوحاء فالأخشبيّن فالحرّما
أرضٌ بها تنبّثُ العشيرةُ قد عشنا وكنا من أهلها علّما¹

وما من شكّ في أن احتواء أرض الحجاز، موطن الشاعر، الأماكن الإسلامية المقدسة جعل تعلق الشاعر بالمكان يزداد قوة، وشعوره بفخر الانتماء إليه يزداد في نفسه رسوخاً، ويزيده تيهاً بذاك الانتماء وعجباً، حتى إنّه لم يكن يغفل عن الإشارة إلى قدسية ذلك المكان كلما سنحت له فرصة، ووظف ذلك في فخره بنفسه وقومه، كما تبين، ووظفه في مدحه أيضاً، فقد مدح عبد الله بن الزبير، ملحاً على قيمة النسب الشريف، ومعيداً ذلك الشرف إلى انتماء الممدوح وقومه إلى الأماكن المقدسة التي ينتمي إليها الشاعر نفسه، ومكثراً من ذكر الأماكن التي كان لها في مسار الدعوة الإسلامية أثر وخطر، قال:

أنتَ ابنُ معتلجِ البطا ح كُـ دَيِّها فكـ دايها
فالبيوتِ ذي الأركانِ فالـ مُستنّ من بطائحها
فمحلّ أعلامها إلى عرقاتها فجرأتها
من سرّها فيها ومغـ دين برّها ووفائها
أوقى قريشٍ بالعلّى في حكمها وقضائها²

¹ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ص: 151-152. أقبس: أوقد، طيبة والروحاء والأخشبان والحرم: مواضع.

² ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ص: 117. المعتلج: الرمل المتراكم الداخل بعضه في بعض، البطاح: ج بطحاء، ويطحاء الوادي: مسيل الماء فيه حصى وتراب مما جرّته السيول، البيت ذو الأركان: الكعبة، المستن: مخرج ماء الوادي، سرها: أصلها، المعدن: مكان كل شيء يكون فيه أصله وميدوه.

وأما الأحوص فقد جاء بحديثه عن موطنه واقتترانه بأجمل الذكريات في نفسه في معرض التشبيه، فقال:

فَكَنْتُ فَيُكْمُ كَمَطُورٍ بِيَاذَتِهِ فَسَرَّ أَنْ جَمَعَ الْأَوْطَانَ وَالْمَطَرَ¹

وأبي شعور يعادل نشوة من ينعم بالإقامة في موطنه، ثم تجود عليه السماء بغيثها، فيجتمع له خير الأرض وخير السماء!

وعلى كثرة ذكر الأماكن في شعر نصيب، فإن الباحث لا يجد في شعره تحديداً للموطن أو ذكراً لبلد المحدث والانتماء، ولا عجب في ذلك وهو العبد الذي لم يعرف أصله، ولا يعدو ذكر الأماكن في شعره أن يكون وقوفاً تقليدياً على الأطلال، وتعويضاً عن غياب ذكر الموطن بذكر الأماكن التي قابل فيها الشاعر من أحب، على نحو ما ألف الشعراء، كما في قوله:

أَبَالْغُورِ أَمْ بِالْجَلْسِ أَمَسْتُ وَأَيْنَمَا تَكُنْ دَارُهَا مَنِّي فَذَكْرِي لَهَا سُقْمٌ
زَبِيرِيَّةَ بِالْجَزْعِ مِنْهَا مَنْزَلٌ وَيَالْعَرْجِ مِنْ أَدْنَى مَنَازِلِهَا رَسْمٌ²

وربما ذكر الأماكن التي صادف فيها حسن الطالع بنوال أعطيات الممدوح.

إن المكان/الوطن يمثل عند الشعراء الذين مرّ ذكرهم بقعة من الأرض يشعرون فيها بدفع الانتساب وعمق التواصل مع الأهل والعشيرة، إنه المكان الجماعي الذي يقابل المكان الفردي، "ويمكن النظر إلى هذا المكان بوصفه نظاماً اجتماعياً اقتصادياً عاطفياً ينتظم العلاقات البشرية جميعها في هذه المجالات."³ ويكتسب هذا المكان دلالة وقيمة بفعل الإنسان الذي لا يكتفي بسد احتياجاته المعيشية بما يتوفر في المكان من أمور مادية، ولكنه يخلع عليه من مشاعره الفياضة ويضفي عليه من جمال ذكرياته ما يجعله عالماً خاصاً يحمل في طياته منظومته القيمية والثقافية.⁴

¹ ديوان الأحوص: ص: 163. مكان ممطور: أصابه المطر، أراد أنهم غمروه بعبائهم ونوالهم.

² شعر نصيب: ص: 127 - 128. الغور والجلس والجزع والعرج: مواضع.

³ مشكلة المكان الفني: لوتمان، ضمن (جماليات المكان/جماعة)، ص: 62.

⁴ المرجع السابق: ص: 65-66.

ب- المكان المعادي:

لم يقتصر الشعراء على ذكر الأماكن الأليفة والمحبوبة في أشعارهم، فقد كان لكل منهم تجربة مرّة ترتبط بالمكان، بشكل من الأشكال -كما هي حال البشر في كلّ زمان ومكان- وعبر الشعراء عن تجاربهم تلك من خلال تصوير الأمكنة الموحشة، التي يصحّ أن تسمى (الأماكن المعادية) لما تخلقه في نفوس الشعراء من إحساس بالنفور والجفاء، ويتمثّل ذلك الإحساس في شعرهم على هيئة موقف معاد لتلك الأماكن، نافر منها وكاره لها. إن الإنسان ينفر من المكان المعادي لافتقاده فيه الشعور بالأمان والسكينة، فهذا المكان موحش "يرتبط بالفقر والفراغ والبرودة، وهو مكان يوحي بذويان الكيان وتلاشييه، فالإنسان يتيه فيه ويفقد نفسه".¹

"ويصبح المكان إشكالية إنسانية إذا ما اغتُصب، أو إذا حرمت منه الجماعة، ولذا فإنه يكتسب قيمة خاصّة ودلالة مأساوية بالنسبة إلى المستعمرين واللاجئين".² ظهرت هذه الأماكن المعادية عند الشعراء في أشكال عدّة، فكان القبر أحدها، وهو مقترن بموت الأحبة، وكان مكان الاغتراب شكلاً آخر من أشكال الأماكن المعادية، ظهر عند بعض الشعراء الذين عانوا مرارة البعد عن الوطن لأسباب لم تكن تسرهم ولا تتبع إرادتهم في معظم الأحيان، ثمّ كانت أرض الأعداء شكلاً ثالثاً من أشكال المكان المعادي وجدناه عند بعض الشعراء الذين اختلفوا مع ذوي السلطة، فراحوا ينظرون إلى أرض الحكام وديارهم بوصفها أمكنة معادية.

القبر:

يظهر المكان الموحش/القبر في شعر الشعراء في مظاهر عدة، وعادة ما يكون ذلك في غرض الرثاء، ومن هنا فإنه مقترن بذكر المرثي عند الشاعر الرائي، ويبالغ بعض الشعراء في رسم صورة القبر، ليعبروا من خلال تلك الصورة عن مكانة المرثي، وعن هول الخسارة بفقده، وهنا يكتسب القبر مسحة من جلال وهيبة، ويبدو -مع وحشته- حفرة غير عادية، امتلأت بالمكرّمات التي دفنت مع صاحبها، فهي لذلك تفيض نوراً، إنها حفرة تجذب الشاعر لوصفها ورثاء صاحبها. قال ابن قيس الرقيات في رثاء عبد الواحد:³

¹- المرجع نفسه: ص: 65.

²- جماليات المكان (جماعة): ص: 3.

³- جاء في ديوان ابن قيس الرقيات: عبد الواحد بن أبي سعد بن قيس بن وهب [بن وهبان]... من عامر بن لؤي. الديوان: ص: 79.

ما خَيْرُ عَيْشٍ بِالْجَزِيرَةِ بَعْدَمَا عَثَرَ الزَّمَانُ وَمَاتَ عَبْدُ الْوَاحِدِ
مَاتَ النَّدَى وَالْجُودُ مَعَهُ وَضُمْنَا قَبَرَ الْكَرِيمِ الْأَرْيَحِيِّ الْمَاجِدِ¹

وبيّن ابن قيس الرقيات في موضع آخر أن القبر ليس حفرة يرقد فيها بدن المتوفى وحسب، وإنما هو مكان يضم ما اتصف به المرثي من مآثر ومكرمات، وهو لذلك مستقر لكل خير:

بِسِجِسْتَانٍ قَدَّسَ اللَّهُ مِنْهُ قَدْ تَوَى فِي الضَّرِيحِ خَيْرٌ كَثِيرٌ²

لم يعد القبر عند ابن قيس مكاناً موحشاً يقف عنده الشاعر ليكي ويندب ويتحسر، ولكنه أصبح مكاناً لذكر أهل الفضل وما كان من جميل معروفهم، والدعاء لهم، فلم يعد -والأمر كذلك- مكاناً معادياً، بل اكتسب صفات إيجابية ليست لغيره من الأماكن التي تشبهه، ويبدو أن الصلة بين الشاعر والمرثي، وعمق العلاقة التي تربطهما، فضلاً عن شخصية الشاعر نفسه، أمور قد أثرت كلها في رسم هذه الصورة، ومن الواضح أن الشاعر يؤمن من كان وجود عليه في حياته بالخيرات، ومن كان يربطه به الود. فمن غير المستغرب - والحال كذلك - أن يقف الشاعر عند إبراز ما اختص به القبر من احتواء الفضل والندى والمآثر، وأن يرسم أطراف هذه الصورة بأناة، مع غياب الانفعال الشديد، وسيطرة العاطفة الهادئة والتصبر.

ولا يفوت الشعراء أن يدعوا لقبور من يرثون بالسقيا، وهي "عادة درج عليها الجاهليون، وقيت في الإسلام، وإن تغيرت الرؤية الفكرية لمفهوم السقيا،...، ويتراءى للمرء أن وراء عادة السقيا المستمرة لدى الجاهليين والإسلاميين ظاهرة الجفاف التي تلاحقهم في صحرائهم الغالبة على بلادهم."³ وها هو ذا نصيب يمضي على سنة الشعراء فيدعو للقبور بسقيا من الله وكأنه يستمطر معها الرحمة للمرثي:

سَقَى تِلْكَ الْمَقَابِرَ رَبُّ مُوسَى سَجَالَ الْمُزْنَ وَبَلَا ثَمَّ وَبَلَا⁴

¹ المصدر السابق: ص: 79. الأريحي: الذي يهتز للكرم، الماجد: الحسن الخلق السمع الكريم.

² ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ص: 17.

³ الرثاء في الجاهلية والإسلام: د. حسين جمعة، ص: 57-58.

⁴ شعر نصيب: ص: 122. السجال: ج سَجَل، وهو الدلو الممتلئة ماء، وسجال المزن: مطر السحاب الغزير. الويل: ضرب من المطر المتتابع، والوايل: المطر الشديد.

وإذا كانت القبور تبدو على هذا النحو في شعر بعض الشعراء الذين رثوا وأبناؤا، فإنها قد بدت في شعر شعراء آخرين على نحو آخر، وإن نظرة في شعر جميل ابن معمر تكفي لتكشف عن أن الشاعر ما عاد يقف على القبر نائحا نادبا، ولكنه صار يجد الموت راحة له من عذاب افتراقه عن محبوبته في الدنيا، لأنه يرجو أن يكون القبر مكان اجتماعه بمن أحب، أو راح يرجو أن يكون قبرهما بعد موتهما متجاورين، إن لم يقدر لهما أن يجتمعا في قبر واحد، كما في قوله:

ألا ليتنا نَحيا جميعًا فإن نُمُتْ¹ يُوافٍ لدى الموتى ضريحِي ضريحُها¹

وها هو ذا يدعو ربّه أن يجعل قبره بجوار قبر حبيبته، فيصبح الموت -على هذه الصورة- مطلوبًا، ويغدو القبر مكانًا مرغوبًا فيه:

وجاورُ إذا ما مِتُّ بيني وبينها² فيا حبذا مَوْتِي إذا جاورتُ قَبْرِي²

إن صورة المكان غير الأليف/القبر كما بدت في شعر الشعراء المدروسين بدت - على خلاف ما يتوقع المرء - صورة زاهية، أو هي صورة غير قائمة، إذا ما توخى المرء الدقّة، فالقبر في الأشعار التي دُرست تضمّن ألوانًا من المكارم والمآثر، وصار مكانًا للحبّ الذي افتقده المحبّ في الحياة.

مكان الاغتراب:

غادر بعض الشعراء أرضهم وموطنهم مكرهين، لأسباب سياسية تارة، وسعيًا في طلب الرزق تارة أخرى، لكن أوطانهم ما غادرتهم، ولم يكن أولئك الشعراء راضين في الأحوال كلها عن إقامتهم بعيدًا عن مواطنهم، وشعروا في بلاد المغترب بضيق شديد، عبّروا عنه في أشعارهم، فبدأ مكان الاغتراب موحشًا قائمًا، يهان فيه المرء لبعده عن قومه، ويشعر برغبة شديدة في مغادرته إلى أرضه التي يألف ويحب. ولعلّ ابن قيس الرقيات خير من صوّر الضيق الذي رافقه عندما كان في العراق مغتربًا عن أرض الحجاز التي نشأ فيها فألفها وأحبّها: قائلاً:

أَتَقَعُدُّ فِي تَكْرِيْتٍ لَا فِي عَشِيرَةٍ شُهُودٍ وَلَا السُّلْطَانُ مِنْكَ قَرِيبُ

فَدَعُ مَنْزِلًا أَصْبَحَتْ فِيهِ فَأِنَّهُ بِهِ جَيْفٌ أَوْدَتْ بِهِنَّ حُرُوبُ³

¹- ديوان جميل: ص: 51.

²- المصدر السابق: ص: 104.

³- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ص: 69. تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وفيها كانت وقعة بين عبيد الله بن الحرّ وأصحاب مصعب، جيف: ج جيفة وهي جثة الميت.

ما أفسى الشعور بالغريرة المرّة التي تقتلع المرء من أرضه لترمي به في أرض بعيدة، لا ناصر له بها ولا أنيس! إنها الغريرة التي أصابت الشاعر بالانشطار النفسي الذي تجلّى في تجريد الشاعر من نفسه شخصاً يخاطبه، بل إنه يلومه ويعاتبه: (أتعد، فدع منزلاً) لأنه ارتضى السكنى في أرض مشؤومة ليست أرضه، لكنها أرض احتراب وقتل وجثث. وقال في موضع آخر مصرّحاً بما يشعر به من مهانة وضيق في مغتربه:

يا سَلْمُ نَأْيِ الدِيَارِ عَنِ بَلَدِ الـ — وَالِدِ ذُلِّ وَرُحْبُهَا ضَاقُ¹

ويذكر الشاعر نصيب أرض مصر التي قصدها مغترباً مبتغياً نوال الأمير وعطاءه، فيرسم لها صورة بهية، ويبين أن فضل الأمير يغمر أرجاءها، وفضل الأمير - كما يقرر الشاعر - يعادل فيض كرم النيل العظيم الذي يوجد على مصر بالهبات والخيرات:

فبَشَّرَ أَهْلَ مِصْرَ فَقَدَ أَتَاهُمْ — مَعَ النَيْلِ الَّذِي فِي مِصْرَ نَيْلُ²

وذكر نصيب في بعض شعره أنه غادر أهله إلى أرض مصر رغبة في حياة كريمة، إلا أن إحصاء أبواب الأمير بوجهه حرمة أمه، وقضى عليه وعلى أهله بالدّلة والفاقة، ومع أن الأبيات لا تتضمن حديثاً بسوء عن أرض الغريرة، إلا أن الحنين الظاهر إلى الأهل، والرغبة في العودة إليهم بالأموال والخيرات، كشف عن ضيق الشاعر بغريرته، وعدّه إيها سبيلاً لكسب المال الذي يغني الأهل عند العودة إليهم، وحسب. قال:

ألا هل أتى الصقر ابن مروان أنني — على الباب حتى كادت الشمس تغرب
وأنتي إذا زمت الدخول تردني — مهابة قيس والرتاج المضرب
وأهلي بأرض نازحون وما لهم — بها كاسب غيري ولا متقلب³

¹ - المصدر السابق: ص: 72. الرحب: السعة، والضيق: نقيض السعة.

² - شعر نصيب: ص: 114.

³ - شعر نصيب: ص: 62. الرتاج: الباب المغلق وعليه باب صغير، المضرب: المغطى، من التضبيب وهو تغطية الشيء ودخول بعضه في بعض، النازح: البعيد، متقلب: بصير بتقلب الأمور وتصريفها.

وكانت للشاعر جميل تجربة مع الاغتراب، فقد ارتحل مَرَات عن أرض الحجاز، وكان يحنّ إلى الأماكن التي جمعته ببثينة، ثم ابتعد راحلاً إلى مصر، فاشتدّ به الحنين إلى موطنه بالحجاز، وراح يتذكر عتاب بثينة له لَمَّا عقد نية السفر، وتمنى أن يعود به الزمان ليقضي ليلة في (وادي القرى)، ذلك المكان الذي جمعه يوماً ببثينة، فقضى معها فيه أجمل أيام حياته وأسعدها، قال:

وما أنسَ مِ الأشياءِ لا أنسَ قولها وقد قرّبت نضوي: أمصرَ تُريدُ
ألا قد أرى والله أن رُبَّ عبـرةٍ إذا الدارُ شَطَطَتْ بيئنا سنرودُ
ألا ليت شعري هل أبيتننَّ ليلةً بوادي الفُرى إنني إذن لسعيدُ¹

إن جميلاً لا يذكر أرض مصر بسوء، لكن إلقاء النظر على أوصاف موطنه في شعره، وتأمّل حديثه عن مشاعر السعادة التي كانت تحوطه فيه، يكشفان عن عمق الحزن الذي كان يحفر في قلبه بسبب اغترابه عن تلك الأرض وذاك الوطن، وانتقاله إلى العيش في مصر، معتزبه الجديد، وليس من الضرورة أن يذمّ الشاعر مكان الاغتراب، لكن كثرة ذكره لموطنه وحنينه الدائم إليه يكشفان -بلا ريب- عن ضيق شديد عاناه في أرض الغربية. وفي مصر شعرَ جميل أن منيته اقتربت، وأن الغربية ستحول بينه وبين لقاء بثينة، فأنشد شعراً ذكر فيه أساه وحسرتة، لأنه سيقضي نحبه في مصر بعيداً عن أرضه، وعن ذكرياته في (وادي القرى)، وعن بثينة المحبوبة، قال:

بَكَرَ النَعْيُ وما كُنَى بجميلٍ وتوى بمصرَ ثواءَ غيرِ قُفولٍ
ولقد أُجِرُّ الذيلَ في وادي الفُرى نَشوانَ بينَ مزارعٍ ونَخيلٍ²

إن أرض مصر عند جميل أرض الغربية والموت والفناء، وأمّا موطنه (وادي القرى) فكان أرض عزّه وافتخاره، وفي تلك الأرض كان يختال منتشياً بما كان يكتنفه من رغد العيش. ولا يذكر جميل أرض الغربية إلا ذكر أرض الوطن، فعقد بينهما مقارنة خفية تكشف عن عمق حنينه إلى الوطن، وضيقه الشديد ببلاد الغربية التي سيقضي فيها نحبه.

¹ ديوان جميل: ص: 62-63-65. م الأشياء: من الأشياء، استعملت في الشعر، النضو: الناقة المهزولة، شط: بعد، ترود: تذهب وتجيء بريد تحير ماء العين فيها، وادي القرى: موضع قرب المدينة كان يقيم فيه جميل وبثينة.

² ديوان جميل: ص: 184. بكر: أتى الشيء بكرة أي غدوة، النعي: الناعي الذي يأتي بخبر الموت، كنى: ستر، توى: أقام، غير قفول: غير راجع، جرّ الذيل: كناية عن التيه والتبخر.

لكن بلاد الاغتراب ليست في نظر الشعراء جميعهم بلاد مهانة ومذلة، وكم من شاعر اختار مفارقة موطنه طوعاً ليبنتغي رزقاً من أصحاب العزّ والجاه، كما فعل الأحوص عندما غادر أرض الحجاز قاصداً بلاط الأمويين في دمشق، طمعاً في عطاء الخليفة:

سأطلبُ بالشام الوليدَ فإِنَّهُ هو البحرُ ذو التِّيَّارِ لا يَتَعَضُّعُ¹

وهنا تغدو أرض الغربة أرضاً سخية بعطائها، ويشعر فيها الشاعر المغترب بعزّ المال ورفد السلطان، فيصبر ويسلو عن موطنه، ويجد في مال الخليفة تعويضاً مجزياً عن غربته، وتقديراً ثميناً لمفارقة أرضه.

وكان عبيد الله بن قيس قد سافر إلى مصر مادحاً أميرها لبني أمية عبد العزيز ابن مروان، طامعاً في نواله وعطائه، فبدت أرض مصر في شعره ذلك أرضاً باهرة تفيض بالخير العميم، قال:

محلُّ قَد نُحُلُّ بِهِ لذيذُ عَيْشُهُ غَدُّقُ
يَحُلُّ بِهِ ابْنُ لَيْلَى وَالنَّدى وَالْجَلْمُ وَالصَّدْقُ²

إن أرض مصر مغترب (طوعي) قصده ابن قيس راغباً في مال وعطاء، متغاضياً عن حبه الخالد لموطنه، ومتجاهلاً موقفه السياسي القديم تجاه الأمويين الذين عاثوا في الحجاز دماراً وأباروا أهله قتلاً - كما كان الشاعر قد ذكر في همزيته الشهيرة - في سبيل اغتنام جوائزهم السنوية، بعد أن وجد أن لا مفر من الانضواء تحت حكمهم وسلطانهم. وغدت أرض الغربة في قصيدته هذه أرض رغد وطيب عيش.

تبين مما أسلفت أن نظرة الشعراء إلى أرض الغربة قد تفاوتت، فمنهم من صرح بكرهه إياها ونفوره منها، ومنهم من جعل مشاعر بغض الغربة تتوارى - وإن كانت لا تخفى - خلف ستار شفيف من شعر الحنين إلى الوطن، وقدم بعضهم أطماعه في حاجات الدنيا على لبانات القلب وهواه، فأثر أموالاً يغتتمها في بلاد بعيدة، على إقامته في أرضه فقيراً معوزاً، فحقق رجاءه حيناً، وخابت آماله أحياناً.

¹ ديوان الأحوص: ص: 170. الوليد: هو الوليد بن عبد الملك، لا يتعضعض: لا ينقص فهو جواد سخى على أي حال.

² ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ص: 159. ابن ليلى: عبد العزيز بن مروان أمير مصر لأخيه الخليفة عبد الملك بن مروان.

أرض العدو:

غادر بعض الشعراء أوطانهم مكرهين، وحلّت بها بعدهم نائبة من نواب الدهر،
وذلك ما جعلهم أكثر تعلقًا وتشبُّبًا بأوطانهم من جهة، وأكثر بغضًا لبلاد اغتربهم،
ولأرض إقامة خصمهم -على السواء- من جهة أخرى، وهذا أمر جليّ في شعر عبيد الله
بن قيس الرقيات، الذي أبغض كلّ أرض غير أرض الحجاز، فكيف إذا كانت تلك
الأرض أرض الشام التي مثّلت وقتذاك مكان الولاء المطلق لخصومه من بني أمية،
فكان من البديهي أن يكرهها ويحقد على أهلها، بل إننا نجد في شعره يقيم مطابقة بين
الإقليم وأهله، فد(الشام) عنده تعني الأرض وأهلها، وبغضه يشملهما جميعًا، قال:

كَيْفَ نَوْمِي عَلَى الْفَرَاشِ وَلَمَّا يَشْمَلُ الشَّامَ غَارَةٌ شَعْوَاءُ¹

ومن أرض الشام تتطلق جيوش الأعداء فتوقع بأحبته، وتركه يعاني في العراق آلامه
وأحزانه:

فَمَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي خَلِيلِيَّ آيَةً عَيْنِيَّةٌ أَعْنِي بِالْعِرَاقِ وَمَالِكَا
فَهَلْ مِنْ طَيِّبٍ بِالْعِرَاقِ لَعْلَهُ يُدَاوِي كَرِيمًا هَالِكًا مَتَهَالِكَا
فَلَوْلَا جِيُوشُ الشَّامِ كَانَ شِفَاؤُهُ قَرِيبًا وَلَكِنِّي أَخَافُ النِّيَازِكَا²

أصبحت أرض الشام في نظر ابن قيس أرضًا معادية لأن فيها القصر الأموي
الحاكم، الذي فرض سلطانه بالسيف والذهب، فأصلت السيف حينًا على رقاب أهل
الحجاز، قوم الشاعر ورهطه، وقتل منهم عددًا، فلا يستغرب - بعد ذلك - أن ينظر
الشاعر إلى الشام ومَن بها نظرة الحقد والعداء، ولا عجب في أن يتمنى للشام وأهلها
الهلاك والشتات، انتقامًا لما فعلوه بأهل الحجاز.

ولا عجب - بالمقابل - في ألا يوافقه غيره من الشعراء، وأن يروا في الشام غير ما
كان يرى، وأخص أولئك الذين كان يفدون على القصر الأموي ليمدحوا أهله وينالوا
أعطياتهم وهباتهم، أمثال الشاعر الأحوص الذي "وقف شعره على بني أمية لا يعدوهم،

¹ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ص: 95. غارة شعواء: منتشرة متفرقة.

² المصدر السابق: ص: 130-131. آية: رسالة، عيينة ومالك: ابنا أسماء بن خارجة بن حصن الفزاري كانا
غزليين شاعرين، المتهالك: هو الهالك، ويعني بالكريم الهالك المتهالك نفسه، النيازك: ج نيزك وهو الرمح القصير.

لا تقرأ له شعراً ولا ترى عنه خبراً يؤخذ منه أنه مدح أحداً غيرهم، عظيماً كان أو والياً أو غير ذلك.¹ فما كان له - والحال كما بينت - سوى أن ينظر إلى أرض الشام بعين العرفان، واقتضى منه ذلك العرفان أن يحقد على أعداء الشام، ويكره كل أرض تناصب بني أمية العدا ولا تدين لهم بالطاعة والولاء، وانصب كرهه على أرض العراق، فصور المعارك التي دارت بين جيش الشام وجيش العراق، مبيّناً تفوق الأول وانتصاره، وضلال الآخر ومقتل أفراده وتناثر جثثهم في أرض العراق، قال:

رَمَى أَهْلَ نَهْرِي بَابِلٍ إِذْ أَضَلَّهُمْ أَزَلُّ عُمَانِيَّ بِهِ الْوَشْمُ رَاضِعُ
بِتَسْعِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ حِينَ يُبْتَلَى جَمِيعُ السِّلَاحِ بِاسْلُ السِّنْفِ دَارِعُ
مَنْ الشَّامِ حَتَّى صَبَّحَتْهُمْ جُمُوعُهُ بِأَرْضِهِمْ وَالْمُقْرِبَاتِ النَّزَائِعُ
وَكَمْ غَادَرَتْ أَسْيَافُهُمْ مِنْ مُنَافِقٍ يَمْجُجُ دَمًا أَوْدَاجُهُ وَالْأَخَادِعُ
فَأَضْحَوْا بِنَهْرِي بَابِلٍ وَرُؤُوسُهُمْ تُجِيرُ بِهَا الْبَيْدَ الْمَطَايَا الْخَوَاضِعُ²

إن الشاعر يرسم صورة المكان المعادي وفقاً للأحداث التي مرّت بحياته، فأثرت في وسم علاقته بالسلطة الحاكمة ومكان استقرار الحكام وسلطانهم وإضفاء الطابع السلبي عليها، ولا يجتمع الشعراء على معاداة مكان واحد، فمنهم من كانت علاقته بالسلطة الحاكمة علاقة محكومة بالولاء والمنفعة، فما عادت أرض السلطان في نظرهم أرضاً معادية، ولكن أصبحت الأرض التي يجتمع فيها خصوم السلطة ومعارضوها أرض العدو، وتستحق - برأي الشاعر - الحرب والقتال.

¹ ديوان الأحوص: ص: 50.

² المصدر السابق: ص: 188-189-190. الأزل: الخفيف العجز ويوصف به الذئب المتولد بين الذئب والضبع، به الوشم: سب له، الراضع: اللثيم، والأحوص يشير هنا إلى يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وكان قد خالف يزيد بن عبد الملك وخلعه فأرسل إليه أخاه مسلمة بن عبد الملك فقتله سنة اثنتين ومئة ببابل قرب كربلاء. (ينظر: تاريخ الطبري: حوادث سنة 102هـ، ص: 590/6 وما بعدها)، جميع السلاح: مجتمع السلاح، الباسل: الشجاع، الدارع: عليه الدرع، المقربيات: الخيل التي تدنى وتكرم لنجابتها، النزائع: من الخيل التي نزعنت إلى أعراق فهي كلها كريمة تتحدر من سلالة عريقة، يمّجج دماً: يرميه من فيه، الأوداج: ما أحاط بالعنق من العروق التي يقطعها الذابح، الأخادع: هما في الحقيقة أخدعان وهما عرقان في جانبي العنق قد خفيا ويطنا، تجيز: تقطع، البيد: ح بيضاء وهي القلاة، الخواضع: المائلات العنق إلى الأرض، كأن المطايا تنوء بما حملت من رؤوس القتلى.

خاتمة:

تبيّن أن المكان كان حاضرًا بجلاء في شعر شعراء طبقة الإسلاميين السادسة، وما من شك في أن علاقة الشعراء بالمكان - كما هي حال علاقة الإنسان، أي إنسان بالمكان - علاقة معقدة، فثمة أماكن أليفة، وأخرى معادية، ولم يكن للشعراء أن يفصلوا عن تلك الأماكن في حياتهم، ولا أن يتجنبوا ذكرها في شعرهم، فلم يكن ذكر المكان في الشعر ذكرًا عابِرًا، أو تقليدًا فنيًا يخلو من أي قيمة. ولكنه كان تعبيرًا عن مشاعر متداخلة، مضطربة أحيانًا، وذكريات كثيرة يستردّها الشاعر عند ذكر المكان، سواء أكان ذلك المكان أليفًا أم معاديًا.

والملاحظ أن صور الأماكن - على تنوعها - لم تكن واحدة عند الشعراء، فقد جنح كل منهم إلى تصوير الأماكن التي ألف وأحبّ، أو الأماكن التي كرهه، وفقًا لتجربته الخاصة، ولما تركت تلك التجربة في نفسه من أثر أدى إلى تكوين موقف إيجابي تجاه المكان، أو موقف سلبي. وربما خالف الشعراء المؤلفون، فصوّروا بعض الأماكن في شعرهم بما يخالف المتوقّع أو المعتاد، وبدا هذا الأمر - على نحو خاص - في الحديث عن بعض الأماكن المعادية، أو غير الأليفة على نحو أدقّ، فلم يكن القبر عند بعضهم مكانًا موحشًا معاديًا، ولكنه صار مكانًا مرغوبًا فيه لأنه قد يجمع حبيبين فرقتهما الحياة، وكذلك كان الأمر في تصوير أرض الاغتراب، التي مثلت لبعض الشعراء أرض الرزق الوفير والخير العميم، وكان هذا التصوير المخالف للمألوف ظاهرة جديدة تلفت الانتباه وتميّز شعر الشعراء الذين وردت عندهم، ولا بدّ هنا من التنبّه على الفوارق الفردية التي تميّز شاعرًا من غيره، بالنظر إلى طبيعة حياته، وموقفه من المكان - أليفًا كان أم معاديًا - وتجلّي ذلك في شعره.

إن كثرة ذكر الأماكن في شعر شعراء الطبقة السادسة، وتنوع تلك الأماكن، وتفاوت الشعراء في تقديرها، أمور تستدعي النظر، وتؤكد عمق رؤية ابن سلام الجمحي في تصنيف بعض طبقات الشعراء وفقًا لانتمائهم إلى بيئة مكانية واحدة، لبيّن أهمية المكان في حياتهم بصورة عامة، وأثره في توجيه الذائقة الشعرية عندهم على نحو خاص.

المصادر والمراجع:

1. تاج العروس من جواهر القاموس: مرتضى الزبيدي 1205 هـ، تحقيق: جماعة من المحققين، دار الهداية.
2. تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري 310 هـ، ط2، دار التراث، بيروت، 1387 هـ.
3. تاريخ الفكر الفلسفي؛ الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون: د. محمد علي أبو ريان، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1966.
4. جماليات المكان (آليات التبدي المكاني في الشعر): د. سعد الدين كليب، www.startimes.com.
5. جماليات المكان: غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1404 هـ/1984 م.
6. ديوان الأحوص الأنصاري: جمعه وحققه: عادل جمال، قدم له: د. شوقي ضيف، ط2، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، القاهرة، 1411 هـ/1990 م.
7. ديوان جميل (شعر الحب العذري): جمع وتحقيق وشرح: د. حسين نصار، مكتبة مصر، 1977 م.
8. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت.
9. الرثاء في الشعر العربي ما بين الجاهلية والإسلام: د. حسين جمعة، طبعة جديدة، دار ومؤسسة رسلان، دمشق، 2017 م.
10. شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث؛ دراسة تحليلية: د. عزة حسن، مطبعة الترقى، دمشق، 1388 هـ/1968 م.
11. شعر نصيب بن رباح: جمع وتقديم: د. داود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، ساعدت جامعة بغداد على نشر هذا الكتاب، 1968 م.
12. طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي 231 هـ، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، ط2، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني، جدة، 1394 هـ/1974 م.
13. في نقد الشعر (الكلمة والمجهر): أحمد درويش، ط1، دار الشروق، 1996 م.

14. كتاب التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني 816هـ، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1403هـ/1983م.
15. الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي 1094هـ، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
16. لسان العرب: ابن منظور الإفريقي 711 هـ، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
17. مشكلة المكان الفني: يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم دراز، ضمن (جماليات المكان: جماعة من الباحثين)، ط2، الناشر: عيون المقالات، باندونغ، الدار البيضاء، دار قرطبة، 1983م.
18. المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983م.
19. المكان في الشعر الجاهلي: عابد أمل مفرج، جامعة مؤتة، الأردن، 1994م.
20. المكان في ذاكرة الشاعر الجاهلي: كاتب أمين، شبكة الألوكة، 1437هـ/2015م، www.alukah.net
21. المكان في شعر ابن زيدون: رسالة لنيل درجة الماجستير، إعداد الطالبة ساهرة عليوي حسين العامري، بإشراف د. هناء جواد عبد السادة، كلية التربية، جامعة بابل، العراق، 1429هـ/2008م.
22. موسوعة الفلسفة: د. عبد الرحمن بدوي، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984م.
23. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي التهانوي (بعد 1158هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، ط1، مكتبة لبنان/ناشرون، بيروت، 1996م.
24. الوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي: د. وهيب طنوس، ط1، 1975-1976م.